

وإذن فلا وجه للبكاء والتحسّر والتهالك، وهو قد عرف نهاره فأجلى غمته، ثم كشف ليله وعراه من سرمديته. وذلك على عكس امرئ القيس الذي تجسّد له الليل على صورة وحش بحري يتموج، ويحط عليه الليل/الوحش بجسده الحيواني، ولا ينزاح هذا الهم حتى وإن ناداه الشاعر مترجياً إياه بأن ينجلي بصبح، لأن الصبح ليس بأحسن حالاً من ذلك الليل الحيواني المتوحش.

إن لامرئ القيس مشكلة مع كونه ومع عالمه الروحي ومع المرأة كمتدللة تقتله بدلالها وبصرمها وبمغادراتها المتكررة. ولذا بكى واستبكى ووقف واستوقف وذكر الحبيب والمنزل، وكان أول من فعل ذلك - كما قال النقاد.

أما طرفة فأمره مختلف، ولذلك فإن البيت ليس بيته، وما هو من جنس قصيدته، ولا من نسقها الدلالي. ولن يصح أن نقول إن طرفة قد ضمّن البيت في قصيدته، لأن البيت لا يتداخل مع كينونة النص، ولا تستدعيه ذاكرة القصيدة. ونحن نعرف أن التضمين هو ضرب من التداعي يتطلبه النص ويقترحه. ولو أعدنا النظر في قصيدة طرفة لاكتشفنا - مرة أخرى - أن البيت نشاز دلالي فيها. فهو لا يتربط بأي دلالة من دلالاتها. ولو حذفنا البيت منها لما بقي له أي أثر يشير إليه، أو يدل على وجوده - على العكس من حال ذلك في قصيدة امرئ القيس.

كما أن دلالات البكاء والتهالك لا تدخل في السياق الذهني في تركيب طرفة، وحلوله مختلفة عن ذلك كل الاختلاف. وما ورد في بعض الروايات من قوله (وقفت بها أبكي وأبكي إلى الغد) تنفيه ذاكرة النص التي لا يأتي البكاء فيها كقيمة دلالية. فلا هو